

جناح متمرّد



بثينة خليفة قاسم

كاتبة من البحرين

شهرزاديتي ..

الأصل في الإبداع هو الحرية، والحرية لا تتجزأ بين رجل وامرأة.. خصوصاً إذا ما كان الهدف الأسمى هو خدمة الإبداع باختلاف وجهاته وزواياه.. فإذا ما طولبنا كنسوة بالدفاع عن قضايا المرأة ونصرتها فإنه حري بنا أن نفوض في أعماق الآخر (الرجل) كي نعي قدر الحقيقة!!

■ رغم إيماني - المطلق - بأنه ليس ثمة أدب نسوي وآخر ذكوري ، ذلك أن قيمة الأدب لا تتحدد من طبيعة الجنس البيولوجي وإنما من العمل الفني ذاته ككل ، إلا أن دعوة "المجلة" بمساهمتي في الكتابة والتواصل معها ، جعلني أقع في فخ البحث عن عنوان جديد لعمودي المقبل..

وكلمة اخترت عنواناً وقلبتنه في رأسي وبين أناملي، وجدته لا يحلو لمسمعي وروحي الأنثوية ، حتى سألت نفسي:

" ما دهاك يا بثينة؟

أست ضد تكريس قلمك لتمجيد قضايا المرأة فقط؟

أست ضد زرعك في خانة تحول دون إنطلاقتك الفكرية والإبداعية؟

ألم تكتب ذات يوم تناشدين بعدم تمزيق الصفوف ، لاسيما والنتاج نتاج عام يعود بالنفع للجميع ، غير خاضع لشروط ومعايير؟

لقد كنت دوماً وأبداً لا أحيّد أو أستسيغ تسمية ما تكتبه وتحكيه المرأة من إبداعات " بالأدب النسوي" ، فذلك من شأنه رسم صورة في ذهن المتلقي بضرورة دونية العمل النسائي ، في الوقت الذي تخوض فيه المرأة بقلمها حرباً شعواء لمحاربة الظلم والبطش وسوء استغلال السلطة ، وتدافع عن المضطهدين والمظلومين (رجالاً كان أو امرأة)..

فلماذا يصير البعض على تحجيم المرأة في زاوية تحرمها مساحة التحليق لأفاق شاسعه المدى، وهي قادرة؟

ثم من قال إن المرأة هي الأقدر على وصف أحاسيس المرأة؟ لقد أعطانا فلوبيير في "مدام بوفاري" صورة معبرة لامرأة خائنة بكل تفاصيل تفاصيلها.. وهكذا فعل شكسبير في رسمه لشخصية الليدي "ماكبث" .

إذا فالأصل في الإبداع هو الحرية ، والحرية لا تتجزأ بين رجل وامرأة .. خصوصاً إذا ما كان الهدف الأسمى هو خدمة الإبداع باختلاف وجهاته وزواياه.. فإذا ما طولبنا كنسوة بالدفاع عن قضايا المرأة ونصرتها، والتي يرى البعض أن الرجال لعبوا دوراً رئيساً في تاريخ الهزائم النسوية، وكانوا سبباً في وأد زهرات ملايين النساء عند أفق ما - فإنه حري بنا أن نفوض في أعماق الآخر (الرجل) كي نعي قدر الحقيقة!!

ولقد تناولت في إحدى مناوشتي الحرفية تحت عمود بعنوان (السلامك) كرد دفاع عن عمود سابق بعنوان (الحرملك) بالقول: "الرجل إنسان بالدرجة الأولى ، يحمل في مكوناته النفسية الكثير من الهموم التي تتقاطع وهموم المرأة ، ويدخول عالم "السلامك" من باب الخلفي حيث السرية والروحانية المتشظية، فإن الرجل يبكي ويتألم ويدرك قيمة ترف الحب ونزقه ، كما ويعرف معنى الاستسلام ورفع الراية البيضاء ! وكثيراً ما يدهمه هو الآخر إحساس بالاختناق من موروثات اجتماعية بالية..".

إذا ، لماذا احترت؟ ولم عشت "حرب عصابات" في اختياري اسماً لعمود "المجلة" .. إن الحيرة كانت في عدم رغبتني مع كل ما ذكرت أن أتنازل عن "شهرزاديتي" ، مهما بلغ بي التحدي مداه ، أو مهما وجدنتني أصارع من أجل البقاء بحرية دونما التنازل عن نصفي الآخر!

وهكذا أراني أطيّر ملحقة بجناح لا مكسور كما رسمته الأساطير والموروثات الاجتماعية، وإنما بجناح فيه من القوة والضعف ما يجعله

يخلق تارة بارتضاع قوي ويحط تارة أخرى باندهاق أقوى!

ويبقى السؤال منتصباً بتحد ، كيف نستطيع كنساء عربيات أن نساهم في بناء أوطاننا وعقلياتنا دونما تخل عن "شهرزادياتنا"؟ إنه من الخطورة بمكان أن تدخل المرأة في صراع مع نفسها أو محيطها نكايّة بالرجل فحسب .. إنه مضيعة للوقت ..

ما هكذا يقاس تطور الأمم ولا هكذا نسترجع جزءاً يسيراً من عبق عصورنا الذهبية!

ويخيل لي لو أننا ألغينا كلمة " مساواة" بالرجل من قاموس حياتنا واستبدلناها بكلمة " تكامل" أو "تحالف" لكان ذلك خيراً لنا وأبقى..

وللأمانة هنا لا بد من الإشارة بجناح مهم من نسوة عربيات وقفن بثبات، محايدات ومعتدلات في مطالبهن، رافضات كل ما من شأنه أن يزيد الهوة أو يهدم الأحاسيس والمشاعر الجميلة بين الرجل والمرأة ..

وفي ذلك وظفن عدة أساليب للإلتقاء على جسر التكامل من حوار مشترك ، إحترام متبادل ومراعاة مسئولية كل طرف على حدة.. فإستطعن أن يخلقن لأنفسهن كياناتاً متوازناً ، متسقاً!

بالعودة إلى موضوعنا الأم ، ورفض مصطلح "الأدب النسوي" ، والذي لا يعني لزوماً التنصل عن قضايا المرأة ، بقدر ما يعني التفرقة بين "الهم النسائي" و"الأدب النسائي" ..

فقضية تحرير المرأة ليست قضية نسوية فحسب ، وإنما هي قضية وطنية، يشارك فيها الرجل كما المرأة كما الأنظمة والحكومات..

والا بماذا تفسر تسابق الدول والحكومات ما بينها كي تحتل إمارة في مجتمعاتها مكاناً مرموقاً كأن تكون وزيرة مثلاً، سفيرة، قاضية أو نائبة برلمانياً؟

وللعلم يقال للمرأة حين تصل لقبه مجلس النواب، نائب وليس نائبة كما يخطئ البعض ، فالنائبة هي المصيبة. "كفانا الله وإياكم شر المصائب!".

قد يعيب البعض تعيين إمارة في منصب مرموق كونها ضلعاً أوج بحاجة إلى تقويم بين الفينة والأخرى، متعديرين بتبونها للمناصب العليا إلى ضرورات البقاء والتقليد الأعمى البيغاني للغرب، استعراضاً واستكمالاً لسيناريو النص!

إلى أولئك نقول ، كما لكل قاعدة شواذ ، فثمة رجال كثر وصلوا بذات الأسلوب والوسيلة ، والقضية هنا ليست محصورة ضمن (رجل أو إمارة) وإنما القضية قضية مبدأ، عقلية متخلفة علينا أن نحاربها بتقاسمنا أرضية مشتركة من هاجس الارتقاء بالوطن وإيجاد حلول مثلى لمشاكلنا مهما صغر أو كبر حجمها، لا الوقوف التذلل، ونسيان الهم الأكبر!

أعرف أحدهم بعث كممثل دبلوماسي لبلده في أحد البلدان الشقيقة ، لكنه لم يمتثل لقواعد وأصول اللعبة الدبلوماسية، فرجع خائباً، يجر خلفه أذيال الفشل والهزيمة، فهل نستطيع اتخاذه مقياساً ومعياريًا يعمم على كل الرجال؟

تبقى المسألة علاقة المرء بنفسه أولاً ومدى إحترامه لذاته ثانياً، وما خلا ذلك يعد شعارات رنانة وضرباً من ضروب التقدمية المزورة!

فرحلة موفقة تصحبنا سوياً .. ■